

كاب داجد

لا أستطيع أن أصدق ما حدث!! ولم أتوقف طوال النهار عن
ترديد كلمة: مش معقول!!! أولاً لم أكن أعرف أن هناك قطاراً
مباشراً بين نيم وأجد، وأن المسافة لا تتعدى مائة كيلو متر، وأن
التذكرة ذهاب وعودة ١٦٠ فرنكاً. ثانياً كنت أعتقد أنني حتى لو
تمكنت من الوصول إلى أجد، واستطعت أن أجد مكان معسكر العراة،
فإنى لن أتمكن من الدخول لسبب أو لآخر، إما لإنى مصرى أو لأنى
بدون مراقبة نسائية... ثالثاً كنت أعتقد أن وجود الناس عراة على
البلاج شئ متوقع فى معسكر للعراة، أما وجودهم عراة فى الشوارع
وعلى الأرصفة وفى المقاهى وفى السوبر ماركت، فهذا شئ من
الخيال!!! من محطة قطار أجد أخذت الأتوبيس إلى محطة نادى
العراة، اقتربت من باب النادى الذى تقف أمامه فتاة، ووجدت أن
الذين يدخلون يملكون كارنيهات! فقلت فى نفسى: لا شك أنه ناد
خاص وغير مسموح بالدخول فيه للزوار!! إلا أنني اقتربت من الفتاة
وسألتها: هل ينبغى أن أكون عضواً؟ قالت: لا ولكن اشتر تذكرة
دخول من المكتب وأشارت إلى مكان داخل مبنى بمدخل زجاجى
مكتوب عليه "الاستقبال" وقرأت كذلك عبارة "دخول نهارى" وقفت
أمام نافذة موظف التذاكر وقلت: دخول نهارى، قال: سيارة أم
مرتجل؟ قلت: مرتجل، قال: وحدك؟ قلت: نعم وحدى - وأنا أقول فى
نفسى أنه سيمنعنى من الدخول وحدى - ولكنه قال: ١٢ فرنكاً! قلت
فى نفسى: "يا بلاش" دفعت واستلمت كارنيه دخول نهارى، ودخلت
نادى العراة!!!

مشيت من مدخل نادى العراة إلى مجموعة مبان تبدو على البعد، مساحة المدخل كبيرة جدًا، نافورات وحدائق وساحات لانتظار السيارات ... ثم بدأت المفاجآت تتوالى ... صبية وأطفال من الجنسين يجرون فى اتجاه البحر قادمين من شاليهات خلفية (لم أكن قد لاحظت وجودها) وكانوا بدون أى ملابس!!! اقتربت من المبنى فإذا بها فندق يخرج منه رجل وامرأة متقدمان فى السن يتجهان ناحية سيارة يركبانهما، كانت السيارة مرسيدس آخر موديل وهذا لا يمنع أن يكون هذان الزوجان كذلك بدون أى ملابس!! دخلت بحب استطلاع إلى بهو الفندق ه نجوم ولم يمنعنى أحد، فإذا بأغلب الموجودين فى اللوى هم كذلك بدون أى ملابس!! إلا أنى بدأت فى ملاحظة أن العراة تمامًا هم إما الأطفال حتى سن العاشرة أو كبار السن فوق الخمسين أما من العاشرة إلى الخمسين فإنه ليست هناك قاعدة وإن كان الشخص فى تلك المرحلة من السن يفضل الاحتفاظ بجزء من ملابسه... اقتربت أكثر من الشاطئ فوجدت مقاه وبارات وكافيتريات ومطاعم تطبق عليها كلها نفس الحال، ولاحظت كذلك وجود جنسيات مختلفة فهناك زواج وبيض وصفر (نعم صينيون أو يابانيون رغم ما يعرف عنهم من تحفظ)!! مشيت لمدة ساعات طويلة ولم أصل إلى أى أسوار ولكن هناك حدائق تؤدي بعد ذلك إلى غابات مفتوحة وشواطئ صخرية يحدث فيها اختلاط غريب بين أولئك المرتدين ثيابهم وهؤلاء الذين لا يرتدون أى شيء!! وطوال النهار لم ألاحظ وجود أى مظاهر عدائية أو أى احتكاك بين الفئتين!! صحيح أن هناك رجال شرطة يجوبون المنطقة سواء على أرجلهم أو على خيول إلا أنهم لا يتدخلون مطلقًا طالما لم يطلب أحد منهم ذلك!! هل صحيح أن هؤلاء البشر قد تخلصوا فعلاً من كل العقد (أو القيود الأخلاقية) المتعلقة بالعرى؟؟

كوالالمبور

(١)

مفاجأة حقيقية، معجزة بكل المقاييس، ما هذا؟ ما كل هذا التقدم والنظام والمدنية؟ وكيف استطاعوا تحقيق كل ذلك فى تلك الفترة الوجيزة فهم لم يستقلوا عن بريطانيا إلا سنة ١٩٥٧؟ (أى فى أقل من نصف قرن) (أى فى أقل من المدة التى مرت على استقلالنا نحن فى مصر عن بريطانيا سنة ١٩٥٢). عشر ساعات طيران من القاهرة إلى كوالالمبور، خط مباشر بدون ترانزيت. ولكن شركة الطيران الماليزية لا تجعلك تشعر بالوقت، فهى تقدم لك الوجبات والمشروبات طوال الوقت حسب الطلب، ثم كذلك تقدم لك الأفلام والأغاني والبرامج العربية والأجنبية لكل راكب حسب الطلب، كيف هذا؟ نعم ذلك لأن لكل راكب شاشته التلفزيونية الخاصة، وهى مثبتة على ظهر مقعد الراكب الذى أمامه، من وقت لآخر كانت تظهر لوحة على تلك الشاشة توضح المسافة المقطوعة، وكذلك توضح المسافة المتبقية بين القاهرة وكوالالمبور، ومع تلك المعلومات لاحظت وجود بعض الكلمات العربية فى اللغة الماليزية، وذلك رغم استعمالهم للحروف اللاتينية، مثلاً هم يقولون (وقت Wakt) وتعنى زمن، وكلمة (دفاتر Dafatir) وتعنى تسجيل المسافرين، وكلمة (تكاful Takaful) وتعنى نظام بنكى، وهكذا فإن الأصول العربية لبعض مفردات اللغة الماليزية واضحة جداً. وهناك كذلك بعض الكلمات الإنجليزية التى ينقلونها إلى لغتهم، مثلاً كلمة (ديستيناشن Destination) بمعنى جهة المقصد، أو بمعنى آخر مطار الوصول .

أقلعت الطائرة من القاهرة الثانية صباحاً، ولحسن الحظ فقد جاء

مقعدى إلى جوار النافذة، وهذا هو ما مكننى من ١- مشاهدة صحراء الربع الخالى فى الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ساعة شروق الشمس، ٢- ثم كذلك مياه الخليج الهندى، ٣- ثم ساحل شبه القارة الهندية المطل عليه، ٤- ثم كذلك جبال القارة الهندية، ٥- ثم خليج البنغال، ٦- ثم الساحل من جديد وفى هذه المرة فإن هناك مساحات شاسعة من الجبال الخضراء، أى الجبال التى تكسوها الأشجار والنباتات، ها هى ذى ماليزيا، ها هى ماليزيا من الجو. المفروض أن تكون الساعة الآن الثانية عشرة ظهرًا فى القاهرة، إلا أن المضيف الجوى يتحدث فى الإذاعة الداخلية للطائرة قائلاً: إن التوقيت المحلى فى مدينة كوالالمبور الآن هو الخامسة مساءً، وهذا هو فرق التوقيت بين المدينتين (خمس ساعات).

المطار الحديث جدًا، عمره سنوات قليلة، هو أول صدمة حضارية لمجموعة المصريين، فأنا كنت قد سافرت إلى ماليزيا مع مجموعة نقابة الأطباء بالقاهرة. هناك مثلاً قطار كهربائى معلق فى الجو (مونوريل)، هذا القطار يتحرك ذهابًا وإيابًا بين مكان هبوط الطائرات، ومكان مكاتب تسجيل المسافرين، بدون سائق، وبدون كمسارى، وبدقة شديدة جدًا تفتح الأبواب ثم تغلق، ويتحرك القطار بالكمبيوتر. ثم عندما وصلنا إلى مكاتب التسجيل، حصلنا على فيزا سياحية على الباسبورات المصرية لمدة ثلاثة أشهر، لا إنترفيو فى سفارة ماليزيا فى القاهرة، ولا إنترفيو فى مطار ماليزيا، ولا اشتراطات من أى نوع! هى بلاد مفتوحة لكل البشر، بمنتهى الثقة فى النفس يفتحون أبوابهم لكل البشر، شئ غريب جدًا علينا نحن المصريين الذين تعودنا على التعقيدات المكتبية فى كل شئ. صدمة حضارية جديدة.

نقلنا أتوبيس إلى العاصمة التى تقع على بعد حوالى ٧٠ كم من المطار، وهى مسافة طويلة جدًا، ولكنك تستمتع أثناء الطريق بالمناظر الطبيعية، ثم قبل الوصول إلى المدينة، تبدأ فى ملاحظة

كمية الإضاءة القوية التى تشع منها. عندما وصلنا إلى قلب كوالالمبور كانت الساعة قد أصبحت الثامنة مساءً، وقد هبط الليل ولكن شعرنا كما لو كنا فى عز الظهر، لا يمكن تخيل حجم الإضاءة الصادرة عن كل تلك المباني المعدنية الشاهقة التى تحيط بنا فى المكان الذى يقع فيه الفندق الذى نزلنا به، يكفى أن أقول لكم أن أمامى مباشرة الآن أعلى مبنى معدنى فى العالم فى الوقت الحالى (يوليو ٢٠٠٤) وذلك بعد سقوط برجى نيويورك، إذ يبلغ ارتفاع برجى كوالالمبور (توين تاورز ماليزيا) ٤٣٥ مترًا. والشئ الغريب هو أن كل هذه المباني تترك مضاءة طوال الليل، إيهار لا مثيل له، ولكن من أين جاءوا بكل تلك الطاقة الكهربائية؟ صدمة حضارية

ثالثة.



صباح اليوم التالي تحركت بنا السيارة السياحية فى جولة سياحية، وقد سجلت الملاحظات التالية فى المسجل الصغير الذى أحضره معى دائماً فى مثل تلك الجولات، حتى يكون معيناً لى على سهولة تسجيل ملاحظائى كتابة فى الكراسة عندما أعود إلى حجرتى فى الفندق:

١- نظام المرور فى الشوارع ما زال ملتزماً بالتقاليد الإنجليزية، عجلة القيادة إلى يمين السيارة، والأولوية فى السير للسيارات إلى يمين الطريق (وليس إلى يساره كما لدينا فى مصر).

٢- عدد المساجد كبير جداً، ففى كل شارع هناك أكثر من مسجد، وذلك حيث إن الأغلبية الماليزية تدين بالإسلام.

٣- أغلب مبانى المدينة من الطراز الحديث، ورغم ذلك فهى تحتوى على مباني قديمة يهتمون بالمحافظة عليها، منها مباني ذات طراز عربى واضح جداً، ومنها مباني أخرى ذات طراز المباني الإسلامية فى الأندلس (موريسك). ورغم ذلك فإن الماليزيين قد أضافوا إلى كل تلك النماذج المعمارية قبائلاً وأبراجاً من طرز آسيوية مختلفة، وهو ما ينتج عنه فى النهاية الطراز المعماري الماليزي .

٤- قال لنا المرشد الماليزي الذى كان بصاحبنا فى الأتوبيس أن نصف الشعب الماليزي على الأقل من سلالات صينية وهندية جاءت إلى ماليزيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر؛ للعمل فى التجارة وفى الموانئ التى كانت قد بدأت فى الاتساع والازدهار فى ذلك الوقت، وقد استقرت تلك السلالات فى ماليزيا واندمجت مع السلالة الأصلية.

٥- ورغم ذلك فقد لاحظنا من خلال كلام نفس المرشد أن الماليزيين لا يتقنون تماماً فى العنصر الصينى، وهو الذى يسيطر تماماً على التجارة فى وسط المدينة. نعم إن المركز التجارى للبلدة القديمة

China Town، يتحكم فيه الصينيون بصناعاتهم التقليدية اليدوية، وكذلك بصناعاتهم الحديثة.

٦- كانت الصناعة الماليزية تعتمد أساسًا حتى ١٩٨٢ على الصناعات القائمة على استخراج وتصنيع وتصدير القصدير والمطاط، إلا أن سياسة الدولة في ذلك التاريخ كانت قد تغيرت، فأصبحت تميل إلى اقتصاد الانفتاح الإنتاجي، وإلى تشجيع رعوس الأموال الأجنبية على القدوم إلى ماليزيا، وعلى الاستقرار فيها، وهكذا بدأت صناعات بترولية عديدة تأخذ طريقها إلى ماليزيا، رغم أنها ليس بها أية حقول بترولية. ودخلتها كذلك صناعة السيارات، أولا صناعة التجميع كلك التي كانت لدينا في مصر منذ أوائل الستينيات، ثم تحولت إلى تصنيع السيارة من الألف إلى الياء.

٧- نلاحظ أن سياسية الانفتاح التي تبنتها ماليزيا سنة ١٩٨٢، هي نفس السياسة التي تبنتها مصر قبل ذلك التاريخ، ولكن الفرق الأساسي (وهو ما استطعنا أن نفهمه من تعليق المرشد الماليزي) هو أن رئيس وزراء ماليزيا في ذلك الوقت (مهاتير محمد) كان رجلا أمينًا جدًّا، ونزيهاً جدًّا، وكان يذهب إلى مكتبه صباحًا باستعمال المترو، أو باستعمال دراجته العادية، بدون أي حراسة، وبدون أي مظاهر سلطة، فهو لم يكن يخاف الشعب، وذلك لأنه لم يكن يسرق الشعب.

وهذا هو السبب الرئيسي في نجاح هذا الشعب في تحقيق هذه المعجزة الاقتصادية، النزاهة أعطت القدوة لكل موظفي الحكومة مما جعلهم يزدون الإنتاج، وهذا ما مكن رئيس الوزراء فيما بعد من مضاعفة المرتبات سنويًا.

٨- عرفنا كذلك من المرشد أن النظام السياسي في ماليزيا يشبه النظام السياسي في إنجلترا، أي أن هناك ملكًا لا يحكم، وإنما إدارة شؤون الدولة تقع على عاتق مجلس الوزراء الذي يعينه

الشعب بالاقتدار المباشر من أعضاء البرلمان. وقد أضاف المرشد قائلا أنهم يغيرون الملك مرة كل سنة، وذلك حتى يتمكن كل قبائل ماليزيا من الاستمتاع بميزة أن يكون الملك من أفرادها، وحيث إن هناك ست عشرة قبيلة في ماليزيا، فإن الدور يقع مرة كل ست عشرة سنة على نفس القبيلة لكي يكون الملك من أفرادها. (علق بعض أفراد المجموعة المصرية قائلا: نحن لدينا نفس الرئيس منذ أربعة وعشرين عاما).

(٣)

صباح اليوم التالي لم تكن هناك جولات سياحية في البرنامج، وإنما تركت لكل فرد حرية الحركة، فانفصلت عن المجموعة حيث انشغل الرجال بزوجاتهم (وكنت أنا بدون زوجتي)، وانشغلت النساء بالمشتريات من المراكز التجارية المنتشرة في كل مكان.

كنت قد قررت زيارة متاحف المدينة وحدي وباستعمال مترو الأنفاق، صدمة حضارية جديدة عندما شاهدت الماليزيين يقفون طابورا لدخول عربات مترو الأنفاق، فلا يدفعون كما يفعل المصريون حين يتعجل الصاعدون الركوب دون إعطاء فرصة مغادرة العربة للنازلين .

زرت ثلاثة متاحف موجودة في منطقة واحدة، داخل مساحة خضراء شاسعة، وقد أمطرت السماء قليلا أثناء النهار، فنحن في موسم الأمطار الصيفية، والتي بفضلها أصبحت ماليزيا على ما هي عليه من الاخضرار الدائم طوال العام، إلا أن درجة الرطوبة في الجو عالية جدًا، وقد تكون هذه هي أهم مشكلة في كوالالمبور، مشكلة ارتفاع درجات الحرارة والرطوبة، صيفا وشتاء، وذلك حيث إن تلك المدينة تقع على خط الاستواء (الحلو ما يكملش) .

في متحف الحضارة الماليزية الذي يستعرض تاريخ البلاد منذ

أقدم العصور، ثم فى متحف الفنون التقليدية الماليزية (الأزياء الشعبية- السيراميك - الباتيك - خيال الظل) ثم فى متحف الفن الإسلامى حيث شاهدت معرضاً رائع الجمال للوحات من النقش البارز والغائر، بخطوط عربية جميلة جداً، ونقوش إسلامية، على خامات مختلفة ومتنوعة (رخام - معادن - خشب)، وكلها مطعمة بالأحجار الثمينة، ثم فى قاعات المصاحف والمخطوطات والأنسجة والسجاد، قاعات لا نهاية لها. فى كل هذه المتاحف، وخلال طوال ساعات النهار، ورغم أننا كنا فى شهر يولية، وهو شهر الإجازات الصيفية، إلا أن كل هذه المتاحف، وكل هذه القاعات، كانت مزدحمة تماماً بمئات بل بآلاف التلاميذ الصغار، والتلميذات الصغيرات، فى أزيائهم المدرسية، وبصحبة مدرسيهم، يتأملون ويتناقشون ويدرسون فى كتب وكراريس يحملونها فى أيديهم، وأدركت أن هذا أيضاً هو أحد أسرار التقدم فى ماليزيا، حب البلد، والانتماء إليه.

كوم أمبو

هي مدينة صغيرة اشتهرت منذ أواخر القرن التاسع عشر بفضل إنشاء مصانع تكرير قصب السكر بها، حيث إنها تقع في واحدة من أخصب مناطق وادي النيل، وأكثر مناطق الصعيد إنتاجًا للقصب. ويعمل بالمصانع أغلب سكان المدينة، إلا أنهم يتعرضون بسبب الغبار الناتج عن هذه المصانع إلى الإصابة بالأمراض الصدرية في سن مبكرة، ولا أحد يريد أن يصرف مليًا واحدًا على مشروع تركيب فلتر لمداخل المصانع، ولتذهب صحة السكان إلى الجحيم، حيث إن ذرات الغبار السوداء تملأ جو المدينة ليل نهار عندما تكون المصانع في حالة إنتاج، وهذه الذرات يمكن رؤيتها بالعين المجردة في هواء المدينة، وفي شرفات منازلها.

بالقرب من هذه المدينة الصغيرة يوجد معبد صغير من العصر البطلمي (اليوناني المصري)، وهو يقع تقريبًا في منتصف المسافة بين مدينتي أسوان وإدفو، وتتوقف عنده المراكب القادمة من هاتين المدينتين ليتمكن السياح من زيارة المعبد. المشكلة هي أن هناك عشرات المراكب التي تتوقف في نفس الوقت أمام هذا المعبد الصغير، عشرات المراكب التي تتحرك معًا، إما قادمة من أسوان في اتجاه إدفو، أو قادمة من إدفو في اتجاه أسوان.

أنا لا أبالغ في الأرقام فهناك حاليًا حوالي ٣٠٠ مركب سياحي على النيل بين الأقصر وأسوان، يكون نصفها متوقفًا أمام هاتين المدينتين، ويكون نصفها الآخر باستمرار طوال الوقت في رحلات نيلية بين الأقصر وأسوان.

كل هذه المراكب القادمة إلى هذا المعبد الصغير فى نفس الوقت
تطلب من مرشديها وسياحها القيام بالزيارة والانتهاء منها فى ساعة
زمن! وذلك حتى يتمكن ربابنة هذه المراكب من استئناف الرحلة، كل
حسب اتجاهه. فتتجه تلك الآلاف من السياح بقيادة مرشديهم إلى مدخل
المعبد، حيث يقف فى أغلب الأحيان غفير واحد، (وأحيانا غفيران)،
وتكون مهمة هذا الغفير (أو هذين الغفيرين) هى تمزيق تذاكر السياح،
تذكرة تذكرة، وببطء شديد، حيث ينظر الغفير (أو الغفيران) فى تلك
التذاكر تذكرة تذكرة ليتأكد (أو ليتأكدا) من صحة هذه التذاكر، ومن عدم
كونها مزيفة، وهكذا يضيع أغلب وقت الزيارة على هؤلاء السياح
الغلبة، وقوفاً فى طوابير لا نهاية لها، ولا معنى لها.

السؤال هو: لماذا لا يتم تعيين عشرة غفراء لأداء هذه المهمة
الجليلة (مهمة تمزيق التذاكر)؟ وكم يكلف المرتب الشهري للغفير؟

ولماذا لا تتولى جهة ما مسئولية إعادة تنظيم إبحار المراكب
السياحية فى النيل حتى نتمكن من حسن توزيع زيارة هذه المراكب
لهذا المعبد الصغير على ساعات النهار المختلفة؟

ولماذا لا تظل المعابد مفتوحة حتى منتصف الليل لمواجهة هذا
الضغط السياحي الذى انتظرناه طويلا؟

(وذلك كما حدث فى متحف القاهرة عندما استجاب المسئولون
لطلبات المرشدين وأصبحت أبواب المتحف تظل مفتوحة حتى
السابعة مساءً وذلك بعد أن كانت تغلق فيما قبل فى الرابعة بعد
الظهر).

لندن

(١)

انشغلت طوال شهر يونيو ١٩٧٤ بإجراءات السفر إلى إنجلترا، وكنت منقولا بتقدير عام جيد، من ثانية طب إلى ثالثة طب، وكانت الجامعات تقدم لطلابها باسبورات مؤقتة مدتها ستة أشهر، بشرط حضور ما كانت تسميه الجامعات وقتها دورة توعية كان حضورها شكلياً، مجرد إجراء روتيني!! مجرد الحصول على ختم على ورقة تسمح باستلام الباسبور!!

للأسف الشديد نعود الشباب منذ البداية على الاهتمام فقط بالشكليات!! وبعد ذلك وبالباسبور نشترى التذكرة، وكان ثمن تذكرة الطائرة القاهرة لندن القاهرة هو ٨٦ جنيهًا، وبعد ذلك نذهب بالباسبور وبالتذكرة إلى البنك ليحصل كل منا على مبلغ خمسين جنيهًا استرلينيًا بالسعر الرسمي وكان ١٤٠ قرشًا، وقد تمكنت كذلك وبمساعدة بعض الأقارب من الحصول على خمسين جنيهًا أخرى بسعر السوق السوداء وكان ١٧٠ قرشًا!! بعد ذلك نذهب بالباسبور والتذكرة والعملة الصعبة إلى السفارة المعنية لحجز دور في طابور الإنترفيو، وقد وفقني الله في ذلك الامتحان الشفوي بفضل لغتي الإنجليزية، وكذلك بفضل خطاب دعوة رسمية كانت قد أرسلته إليّ إحدى قريباتنا والمقيمة في إنجلترا منذ زواجها من مواطن إنجليزي منذ سنوات عديدة. بعد ذلك أعود بالباسبور وعليه ختم الفيزا إلى شركة الطيران وذلك لحجز ميعاد السفر على التذكرة.

في ذلك العام ١٩٧٤ تقدم إلى سفارة إنجلترا في القاهرة عدد مهول

من الشباب المصري، أقل التقديرات هو رقم ١٥٠ ألفاً، حصل نصفهم (أى حوالى ٧٠ ألفاً) على فيزا، حتى أن أحياء بأكملها فى لندن (مثلاً حى ايرلز كورت) قد تعرضت لغزو مصرى، احتلال مصرى رداً على الاحتلال الإنجليزي لمصر قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان!!

المشكلة الحقيقية والتي أدت بسفارة إنجلترا فى مصر إلى تغيير سياستها السمحة تلك هى أن ثلاثين ألفاً من هؤلاء المصريين لم يعودوا أبداً إلى مصر بعد ذلك وإنما أقاموا إقامة غير شرعية فى بريطانيا! (يجوز حتى الآن!!!!) فيما بعد سيصبح من العسير جداً على أى شاب مصرى الحصول على فيزا للذهاب إلى إنجلترا.

يوم السفر توجهت إلى المطار بصحبة والدى وأخى فى سيارة والدى، وفى الطريق فهمت من والدى أن الطائرة ستهبط فى أرض المطار قادمة من بومباى، لتفرغ حمولتها من الركاب الهنود، ثم يعلن المطار عن قيام رحلة نفس الطائرة إلى لندن (وكان والدى مولعاً بتأليف القصص)، توقعت أن أشاهد على أرض المطار هبوط تلك الطائرة، ونزول الركاب الهنود منها، كما شرح لى والدى. ولكن يبدو أننى كنت بريئاً جداً! أنا لا أتذكر على الإطلاق وقوفى أمام الكاونتر أو تسلمى بوردينج الإقلاع، أو حتى مرورى أمام الجوازات وختم الباسبور، كل ما يتبقى وبمنتهى الوضوح فى الذاكرة هو ذهابى إلى موظفة شركة الطيران، وكنت قد بقيت فى صالة الترانزيت حوالى ساعة أتأمل بشغف وجوه الأجانب المحيطين بى فى كل مكان.

يبدو أننى لم أنبه إلى النداءات المتتالية على ركاب رحلة لندن! ويبدو أننى كنت أنتظر فعلاً مشاهدة ما ذكره لى والدى من هبوط الطائرة القادمة من بومباى!

إلا أننى أتذكر بوضوح انزعاج موظفة شركة الطيران الشديد عندما سألتها ببراءة وهذوء عن طائرة لندن فقالت: (يا نهار أسود، ده انت يا لحقتها يا ملحقتهاش!) كان متبقياً على الإقلاع عشر دقائق!

جريت متخطيًا طوابير متعددة لأصل إلى ضابط يقف أمام باب الخروج لأقول له: (خالصنى بسرعة أرجوك)، فرد على ببرود شديد: (أخلصك ليه هو أنت على ذمتى)، ولكنه تراجع عندما لاحظ انهيارى! جريت على أرض المطار، قابلت سائق سيارة أتوبيس قال لى (إنت الراكب الناقص على طائرة لندن)، قلت: (أيوه)، وإذا به يهتم فعلا ويجرى إلى سيارته لينقلنى إلى مكان الطائرة فى دقيقة، وأتذكر بوضوح أن باب الطائرة كان قد أغلق خلفى فور دخولى. أركبت أن ذلك اليوم كان من أيام حظى الحسن.

(٢)

كنت لأول مرة فى حياتى أركب الطائرة، كنت فى العشرين من عمري. عندما أقلعت الطائرة لم أكن أجلس بجوار نافذة، ولكن بعد مرور ساعة اكتشفت أن جزءًا كبيرًا من مؤخرة الطائرة يخلو من الركاب، فتحركت وأخذت مقعدًا بجوار نافذة.

شاهدت أولاً المياه الزرقاء الداكنة للبحر المتوسط، والتي تبدو من هذا الارتفاع (عشرة كيلو مترات) وكأنها لا تتحرك، ثم شاهدت القمم الثلجية لجبال الألب على الحدود بين إيطاليا وفرنسا، وأثناء عبورنا الأجواء الفرنسية شاهدت مساحات خضراء شاسعة، كنا فى شهر يوليو وكانت السماء شبه صافية طوال الرحلة، إلا أننا بعد عبورنا بحر المانش لم نعد نرى أى شئ، وذلك بسبب كثافة السحب البريطانية.

ثم عندما بدأت الطائرة فى الهبوط أسفل السحب، أعجبنى جدًا منظر البيوت الإنجليزية فى المدن الصغيرة جنوب لندن، إذ تتشابه كل هذه البيوت فى كل شئ، فى الارتفاع وفى الواجهة وفى اللون. كانت الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم ٥ يوليو ١٩٧٤ عندما وطأت قدمى أرض أوروبا لأول مرة.

أول ما لفت انتباهى هو أن الشمس لم تكن قد غربت بعد، فنحن

فى نصف الكرة الشمالى، وهو النصف الذى ىميل على المحور الرأسى للأرض، لىقترب من الشمس خلال فصل الصيف، فىطول نهار البلاد الواقعة فيه.

حصلت من المطار على فىزا شهر واحد، إقامة بدون عمل، وقد اضطرتت بعد مرور هذا الشهر إلى الذهاب إلى Home office، وهو المكتب الخاص بتجديد تصاريح الإقامة للأجانب فى بريطانيا، حيث جددت إقامتى بعد ذلك عدة مرات حتى أوائل نوفمبر من نفس العام. كان عم زكريا فى انتظارى هو وزوجته (جورجينا)، ونقلانى بالسيارة معهما إلى خارج لندن حيث يقيمان.

وطوال الطريق الذى قطعناه بين هيثرو ومدينة لينش ويرث لا أتذكر أننى قد شاهدت شخصاً واحداً يسير على قدميه، وإنما فقط سيارات صغيرة مندفعة بسرعة هائلة. كان خلو الشوارع من البشر هو ثانى ما لفت انتباهى فى هذه المدينة. (كنت أقارن بين هذا وبين ملايين البشر الذين تركتهم يملؤون شوارع القاهرة نهاراً وليلة خاصة فى فصل الصيف).

(٣)

كنت أعمل فى قسم التغليف فى واحد من أكبر المخازن الآلية فى المدينة، وكان هذا النوع من المخازن قد تحول إلى الماكينة الكاملة فكان عملى يتلخص فى الضغط على بعض أزرار وتحويل خط سير الأرغفة من سير تشعب بها إلى سير مازال به مكان يسمح باستقبال هذه الأرغفة قبل مرورها على ماكينة التغليف.

وصباح أحد أيام السبت وهو يوم إجازتى الأسبوعية، ذهبت لزيارة صديقى وحيد حيث كان يعمل فى قسم خدمة الغرف فى فندق هيلتون هايد بارك. قدم لى مأكولات ومشروبات كثيرة (وكله على حساب صاحب المحل)، ثم دعانى إلى الذهاب معه إلى قسم البياضات

حيث تعمل شقراوات إنجليزيات جميلات، فتبعته طائعا. ذهبنا بالمصعد إلى الطابق الأرضي، ودخلنا حجرة ضخمة مملوءة عن آخرها بالملاءات وأغطية الفراش ومناشف اليد، وتحيط بهذه الحجرة الضخمة من كل جانب العديد من الحجرات الصغيرة.

ذهب وحيد إلى أبواب تلك الحجرات ليطل برأسه داخلها، ويبدو أنه كان قد وجد داخل إحداها بغيته إذ إنه جاء ليقول لي أنه سيغيب عني خمس دقائق وأنه لا داعي للقلق إن هو غاب أكثر من ذلك ... لم أقل شيئا وبقيت أنتظر .. وذهب إلى إحدى تلك الغرف ودخلها ... وفعلا لم يغيب أكثر من سبع دقائق، وعاد من حيث كان، إلا أنني فوجئت بخروج فتاة إنجليزية جميلة من نفس الحجرة بعد خروجه هو بدقة، وجاءت مباشرة إليه وعضته في وجهه واستدارت فلقح هو بها ليضربها بشدة على مؤخرتها!! كل ذلك يحدث أمامي وكأنى غير موجود!! بعد أن غادرت هي الغرفة سألت وحيد: (ماذا يحدث؟)، قال: (هذا هو ميعادى اليومى معها!)، قلت: (ميعاد ماذا؟)، قال: (أولم تفهم بعد؟ أنا أمارس الجنس مرة كل يوم مع هذه الفتاة منذ حوالى شهر!!)، قلت: (ألا تخشى أن يطب عليك أحد من الإدارة أو من الزملاء؟)، قال: (ماذا أخشى ولكل منهم ميعاده اليومى معها!)، قلت: (ألا تخشى أن تضج الفتاة بالشكوى؟)، قال: (إنها لن تضج بالشكوى إلا إذا لم نفعل ذلك!!).

وعندما سألتني: (وأنت ماذا تفعل مع البنات فى المصنع الذى تعمل به؟)، لم أعرف كيف أرد وذلك لأنى طوال خمسة أشهر فى إنجلترا كنت مجرد متفرج.

(٤)

كنت أعمل على الأقل خمسة أيام فى الأسبوع، ثم أحصل على يومى السبت والأحد إجازة، فأنتهز الفرصة للنزول من ستيفن إيدج

إلى لندن، وتستغرق الرحلة بالقطار ساعة، وعندما أصل إلى محطة قطارات كينجز كروس، أعدد أولاً وجهتي داخل المدينة، ثم أعدد ثانياً خطوط مترو الأنفاق التي تقي بالغرض. وبذلك فأنى خلال حوالى خمسة أشهر من الإقامة فى إنجلترا، كنت قد ذهبت إلى لندن على الأقل أربعين مرة، زرت خلالها عددًا كبيراً من متاحف المدينة، وأثارها، وكاتدرائياتها، ومسارحها، وقاعات عرض الأفلام السينمائية بها. كنت قد قرأت مؤخرًا فى أوائل عام ٢٠٠٥، السيرة الذاتية للدكتور عبد الرحمن بدوى، وهى التى يخصص نصف صفحاتها على الأقل لمتاحف وكاتدرائيات أوروبا، وذلك لأن زيارة مدينة أوروبية واحدة كانت تثير فيه كل لواعج الثقافة والفن.

وهكذا، وبعيدًا عن أى شبهة مقارنة بينى وبين الدكتور، قررت تخصيص هذه الصفحة لبعض زياراتى فى العاصمة الإنجليزية.

أولاً: المتاحف اللندنية:

١- قاعة العرض القومية National Gallery تقع فى ميدان بيكادلى، وكنت قد ذهبت إليها عدة مرات، واشتريت لها عدة أدلة، وأعجبت فيها بعدد كبير من رسامى عصر النهضة الأوروبية، الذين لم أكن أعرف عددًا كبيراً منهم قبل مجيئى إلى لندن.

٢- المتحف البريطانى British Museum حيث تعتبر أقسام المصريات به واحدة من أكبر مجموعات الآثار المصرية فى الخارج، مع مجموعات اللوفر فى باريس، والمترو بوليتان فى نيويورك.

٣- متحف فيكتوريا وألبرت، وبه كل المصنوعات اليدوية التى تعود إلى زمن الملكة فيكتوريا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

٤- متحف العلوم، وبه قصص أهم المخترعات فى تاريخ البشرية.

ثانيًا: المسارح:

١- جون وبول وجورج ورينجو، وهى المسرحية التى تحكى قصة تكوين

فرقة البيتلز، بين بداياتهم فى ليفربول، وشهرتهم فى العالم لجمع.

٢- مسرحية هير Hair، وهى المسرحية التى كانت مشهورة جدًا فى أوروبا فى ذلك الوقت، بسبب وجود بعض الرقصات العارية بها. وعندما ذهبت لحضور ذلك العرض فى أحد المسارح، اكتشفت أن أغلب الحضور كانوا من العرب، من جنسيات مختلفة.

٣- مسرحية (عيسى المسيح النجم الأعظم) Jesus Christ Super Star. وقد دام عرض تلك المسرحية عشر سنوات. وقد حصلت بعد ذلك على شريط موسيقى لأغاني المسرحية، وكذلك كتيب به كلمات الأغاني، وحفظتها عن ظهر قلب.

ثالثًا: قاعات عرض الأفلام السينمائية:

١- التانجو الأخير فى باريس Last tango in Paris، وهو للنجم العالمى مارلون براندو، والذي كان قد تقدم به السن قليلا فى ذلك الوقت، وأعتقد أنه أخطأ بلعب هذا الدور. وكان الفيلم قد أثار سخط النقاد بسبب بعض مناظره العارية.

٢- طارد الأرواح الشريرة The Exorcist، حيث تسكن أرواح شريرة جسم فتاة مراهقة فتشوها وتحولها إلى مسخ، وهو أكثر الأفلام رعبًا بين كل الأفلام المرعبة التى شاهدها فى حياتى.

رابعًا: قاعة ألبرت الملكية Royal Albert Hall:

١- أوركسترا الكومونويلث، وقدم برنامجًا من أعمال بيتهوفن.
٢- بادي ريتش، وهو عازف آلات إيقاع، وقدم برنامجًا من موسيقى الجاز الأمريكى .

٣- رافى شانكار، وقدم برنامجًا من الموسيقى الهندية، عازفًا على آلة السيتر، مع آلات الإيقاع الهندية التقليدية.



(٥)

أريد أن أحدثكم قليلاً عن فيلم (طارد الأرواح الشريرة)، والدليل على أنه فيلم استثنائي تماماً في درجة الرعب الذى يعانى منه متفرجه، هو أننى لم أستطع أن أعثر عليه مطلقاً بعد ذلك فى أى مكان، لا فى نوادى السينما، ولا فى أسابيع الأفلام، ولا حتى حالياً (سنة ٢٠٠٥) على القنوات الفضائية. وأتذكر أنه كان مرعباً لدرجة أن السلطات الصحية فى بريطانيا كانت تضع سيارة إسعاف أمام كل صالة سينما يعرض بها هذا الفيلم، وذلك بسبب حدوث أزمات قلبية وحالات إغماء للعديد من المتفرجين. وأنا حالياً بعد أكثر من ثلاثين سنة على مشاهدة هذا الفيلم، شعرت بقشعريرة فى جسمى من مجرد تذكر بعض المناظر.

فقاة فى الثالثة عشرة من عمرها لبستها روح شريرة، كانت هذه الروح تسكن قطعة أثرية أصلية أحضرها جدها عالم الآثار من

الشرق الأقصى، ووضعها في حجرته حيث نسيها. رأينا الفتاة أولا
ينفخ جسمها ويبدأ جلدها في التشقق، وتظهر منه أعضاؤها الداخلية،
ولكنها لا تموت إذ إن الروح الشريرة تعيدها فوراً بعد ذلك إلى حالتها
الطبيعية. ثم نرى الفتاة بعد ذلك وقد تحول فيها إلى فتحة ماسورة
مجارى، تندفع منها كل أنواع القاذورات، وتغذف بها كل من يقترب
منها. ثم نرى الفتاة تطير في الهواء بطريقة عشوائية عنيفة، تؤدي
إلى ارتطامها بقطع الأثاث في حجرتها، أو بالسقف والجدران، وينتج
عن ذلك انكسار ذراعها أو ساقها، فتبدأ في الصراخ إلا أن الجرح
يلتئم وحده فجأة. وهكذا فإن هذه الروح لا تفعل ذلك لتقتل الفتاة،
وإنما هي تفعل كل ذلك لتعذب الفتاة، انتقاماً من إنسان آخر كان قد
حبس تلك الروح في قطعة الآثار.

وأريد كذلك أن أحدثكم عن أحد رسامي عصر النهضة الإيطالية،
وكنتم قد انبهرت تماماً به أثناء زيارة المتحف القومي، واسمه
كاناليتو Canaletto. وهو رسام إيطالي (١٦٩٧م - ١٧٦٨م) كان قد
تخصص في رسم المناظر الطبيعية، وكانت له شعبية كبيرة في
إنجلترا في ذلك الوقت، وهو الوقت الذي كان عدد كبير من السياح
الإنجليز يذهب فيه من إنجلترا إلى إيطاليا؛ لاستكمال ثقافتهم الفنية أو
للبحث عن الدفء، وكان عدد كبير من هؤلاء السياح يعود بلوحات
هذا الفنان إلى إنجلترا. وقفت طويلاً أمام لوحاته، حيث أعجبتني جداً
تلك الدقة في تصوير الملامح المعمارية لمدينته فينيسيا، وكذلك
التفاصيل الخاصة بمراكب نقل البضائع، ومراكب نقل الركاب،
بأنواعها المختلفة والتي كان يزخر بها الميناء. علقبت بذاكرتي
البصرية تفاصيل تلك اللوحات بشكل غريب. وتحول البحث عن
كتاب لهذا الفنان إلى وسواس قهري، حتى عثرت عليه في أحد
معارض الكتاب بالقاهرة بعد سنوات.

مارسيليا

(١)

يتحرك القطار من مدينة نيم في موعده ١٧، ١٠ ص، نيم تقع على بعد حوالي ٦٠ كم من مارسيليا يقطعها القطار في حوالي ساعة ونصف، رصيف القطار مرتفع عن مستوى شوارع المدينة، وبالتالي عندما يمر القطار بالمدينة خارجاً من محطة القطار، يكون مستوى شريط السكة الحديد في مستوى أسطح بيوت المدينة. أنظر من النافذة أرى أسطح البيوت القديمة من القرميد الأحمر، وكذلك أبراج الكنائس القوطية من القرن الرابع عشر.

عندما أبتعد عن مركز المدينة، تظهر الأحياء السكنية الحديثة، أبراج سكنية من عشرة طوابق، تسكنها في الغالب الأقليات العربية والأفريقية، فهم لا يمانعون في الاختلاط بجيرانهم، أما الفرنسيون فهم أقل اجتماعية من الأقليات، وهكذا يسكن الفرنسيون في الغالب في منازل مستقلة، تكون عادة من طابق واحد فوق الأرضي، وملحق بها حدائق صغيرة. وعندما تطير بالطائرة فوق هذه المدن، ترى عددًا كبيراً من حمامات السباحة الخاصة داخل هذه الحدائق الصغيرة، تظهر من الطائرة في صورة بقع من اللون الأزرق السماوي .

نبدأ الحقول في الظهور، مساحات شاسعة من الأصفر الذهبي الذي يلعب تحت ضوء الشمس، نحن في فصل الصيف حين تسطع الشمس تقريباً كل يوم، والقمح هو المحصول الرئيسي لفرنسا، ولكن ما هو موعد حصاده؟ في مصر يكون موسم حصاد القمح في أواخر أبريل وأوائل مايو، وذلك حيث إن النبات لا يمكن أن يتحمل درجات

حرارة الصيف في مصر. في الأفق نبدأ في رؤية المرتفعات التي تكسوها الغابات الكثيفة والأشجار.

عندما يمر القطار بسرعة كبيرة بالقرب من المدن الصغيرة، تلك المدن التي لا يتوقف عندها، يكون مروره في ممرات تنزل قليلاً تحت مستوى سطح الأرض؛ وذلك حتى لا ترعج ضوضاؤه سكان تلك المدن الصغيرة. أرى صخوراً حمراء اللون منتشرة على الجبال في خلفية الصورة، وهي الصخور التي تعطى المنطقة اسمها (روسيان Roussillon) (= بالفرنسية أحمر). ولكني لا أعرف إن كانت هذه الصخور هي لخام الحديد (هيماتيت) أم لخام آخر؟ يجب أن أعود إلى دروس جغرافيا وطوبوغرافيا وجيولوجيا فرنسا.

المدينة التي يمر بها القطار الآن صغيرة، بيوتها صغيرة، شوارعها صغيرة، حتى سيارات سكانها صغيرة، وحتى جداول المياه صغيرة. نرى اسم مصنع (باكاردى مارينى)، ثم نرى القلعة التي تقع فوق الجبل، والتي تعيدنا إلى زمن المدن المحصنة في القرون الوسطى، ونعرف من دروس التاريخ أن أغلب مدن فرنسا التي يزيد عمرها عن بضعة قرون، كانت خلال العصور الوسطى تحيط بها الأسوار والقلاع.

يتوقف القطار عند محطة مدينة صغيرة، أقرأ اسمها على اللوحة في المحطة (تاراسكون Tarascon)، وبهذا أعرف أن النهر الذي عبرنا عليه للتو هو نهر (الرون Rhone)، وتذكرنا هذه المدينة بالرواية التي كتبها الأديب الفرنسي (الفونس دوديه Daudet) وكانت أحداثها تدور حوالى سنة ١٨٦٠ في هذه المدينة. الزى الرسمي لموظفى هذه المحطة الصغيرة نظيف جداً، وشيك جداً، بذلة زرقاء على كنف سترتها علامة سكك حديد فرنسا بالخيوط الذهبية، فوق قميص أبيض منشى، ثم كاب أزرق يعلو الرأس. أتذكر حجم الظلم الهائل الواقع حالياً على الموظف المصرى، أينما كان منصبه، بسبب

الضعف الفظيع للمرتب الذى يقبضه، والمهانة الفظيعة التى يشعر بها هذا الموظف بسبب قلة هذا المرتب .

أغلب أسقف البيوت الصغيرة تعلوها مداخن، قد تكون متصلة بفرن مطبخ المنزل، أو قد تكون متصلة بالمدفأة التى لا غنى عنها شتاءً، وذلك باستعمال حطب الخشب كوقود. ثم إن خزانات المياه التى يمكن أن نراها فى أحياء تلك المدن الصغيرة، تشبه كثيراً ذلك النوع الذى ما زلنا نستعمله فى مصر. كنا قد خرجنا إلى الحقول، وها نحن ذا بعد أقل من عشر دقائق نعود إلى الدخول فى مدينة جديدة، يتوقف القطار من جديد فى محطاتها، أقرأ على السيفط اسم (آرل Arles)، وهى المدينة التى هرب إليها الرسام (فان جوخ) فى نهاية حياته، وهى المدينة التى تظهر بوضوح فى لوحات تلك الفترة من نهاية حياته، وذلك قبل أن تنتهى حياته فى مصحة عقلية.

كنت قد نسيت أخذ نصف قرص (أيزوبتين)، وهو مركب ضد الكالسيوم لعلاج ضغط الدم المرتفع، فأخذته الآن مع نصف زجاجة مياه غازية (بدون سكر)، كانت قد أعطتها لى جانين (حماتى السابقة)، مع بعض السندوتشات، لزوم رحلة القطار، فهى ما زالت تشعر نحوى بنوع من الالتزام الأخلاقى. إذا عدت فى العام القادم إلى نفس المنطقة من جنوب فرنسا، يجب أن أفكر فى إحضار مجموعة شرائح الملونة عن مصر القديمة، وذلك لعمل (ديابوراما Diaporama) فى بيت ثقافة نيم Nîmes، أو حتى فى بيت ثقافة (آجده Agde).

الكتابة المكثفة هى واحدة من طرق علاج الذات، التى أمارسها حالياً لمحاولة إعادة اكتشاف الذات، ومحاولة علاج نقاط الضعف، وذلك رغم العمر الذى تجاوز الخمسين. كان كلود (حمائى السابق) قد قال لى هذا الصباح إن حساسيتى الشديدة (وذلك بسبب بكائى لحظة فراقى لهما هو وحماتى السابقة) هى بسبب أن أمى هى التى تولت تربيته تربية نسائية، فأضفت قائلاً إن هذا صحيح فإن أبى كان تقريباً

غير موجود أثناء تربيتي، وأضاف كذلك قائلا إن العواطف الجياشة هي بسبب الطبيعة الشرقية. كنا قد تحدثنا أمس عن الحدود الفاصلة بين إرادة البشر والإرادة الإلهية في القرارات التي يتخذها البشر، فقال لي إن إلغاء وجود الإرادة الإلهية هو أحد الحلول الهامة للتخلص من مشاكل الشخصية المترددة. هو طبعا غير مؤمن.

(٢)

نقرب من مارسيليا، نحن الآن على بعد حوالي ٤٠ كم منها، نرى منطقة كبيرة لتجمع آلاف السيارات، ثم نرى قطارات مشحونة عرباتها بهذه السيارات، وغالبا ستكون هذه القطارات متجهة إما إلى أماكن بيع هذه السيارات داخل أوروبا، أو ستكون متجهة إلى ميناء مارسيليا والتي تصدر منه هذه السيارات إلى الخارج. نفق الآن أمام محطة (ميراماس) وهي المدينة التي يسكن فيها صديقنا (أيريك)، وكنا قد حضرنا إليه أنا وزوجتي السابقة لزيارته سنة ١٩٩٩، وكان قد حضر إلى فرنسا سنة ١٩٩٨، بعد أن كان قد أقام في مصر إقامة متصلة لمدة خمسة عشر عامًا، وذلك ليعالج كبده الذي كان قد تليف تمامًا بسبب إدمان الخمر، وذلك رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد سن الأربعين، وقد نجح العلاج على ما يبدو في إنقاذ ما تبقى من كبده.

أثناء خروج القطار من المدينة، شاهدت شوارعها الرئيسية التي تحف بها على الجانبين أشجار ضخمة، وهي الأشجار التي توفر الظل الكثيف اللازم للجلوس في مقاهي ومطاعم الشوارع خلال فصل الصيف، وهي فترة ازدهار كل هذه المدن الجنوبية، والتي تنام تمامًا طوال فصل الشتاء.

انتقلت من يسار عربة القطار إلى يمينها، وذلك بعد أن لمحت البحر، نحن نسير الآن بمحاذاة البحر المتوسط، بحرنا جميعًا، بحر

الفرنسيين والمصريين معاً، وهذا يذكرنى بكتاب المؤرخ الفرنسى (بروديل Braudel) عن هذا البحر. أرى كذلك عند الأفق إلى يمين القطار، ذلك المجمع الصناعى الضخم (بترول - حديد صلب)، وهو المجمع الذى كان يسبب مشكلة بيئية ضخمة للمنطقة، فقررت السلطات إغلاقه استجابة لمطالب الشعب. (عقبال مصانع حلوان بجنوب القاهرة).

أرى الآن من النافذة إلى يمين القطار، مطار مدينة مارسيليا والمعروف باسم (مارينيان)، والذى يقع على ساحل البحر. آلاف السيارات فى ساحات الانتظار، عشرات من أبراج المراقبة، إلى آخره، وهو المطار الذى هبطت فيه طائرتى منذ حوالى شهر قادمة من ميلانو. وهو المطار الذى من المفروض أن تطير منه طائرتى غداً بإذن الله عائدة إلى القاهرة، مروراً بالترانزيت فى ميلانو (كنت قد طرت هذه المرة على الخطوط الإيطالية).

أنا أجلس فى آخر عربة فى القطار، عدد المسافرين قليل، ولذلك فإن لكل راكب مقعدان (أو أكثر إن أراد). أغلبية الركاب من الشباب، وأغلبية الشباب من العرب المغاربة، كما أن هناك عدداً من السيدات المغاربة، وذلك لأن منطقة تجمع العرب الموجودين فى جنوب فرنسا (توانسة - جزائريين - مغاربة) هى مارسيليا، وهذا يذكرنى بالفيلم (١، ٢، ٣، الشمس) الذى تدور أحداثه فى الأحياء الشعبية بمارسيليا، الأحياء الساخنة كما يسمونها، وهى الأحياء التى تعيش فيها الأقليات العربية والأفريقية والبرتغالية فى تعايش سلمى، سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو الكفرة، ذلك التعايش السلمى الذى قد يتعكر أحياناً صفوه بسبب ثورة الشباب، وبسبب ثورة السن، وبسبب قلة فرص العمل، وبسبب قلة فرص الاندماج الاجتماعى، كل ذلك بسبب قلة فرص التعليم، وغالباً ما يكون تعثر شباب الأقليات فى نظام التعليم الفرنسى، هو بسبب جهل الوالدين بالثقافة الفرنسية،

وباللغة الفرنسية.

أشاهد الآن أحواض سفن ميناء مارسيليا، أتذكر أنني كنت قد قابلت في القاهرة سيدة متخصصة فى الاقتصاد الدولى، كانت المجموعة الأوروبية قد أعارتها لمصر؛ وذلك لمحاولة مساعدة مصر فى التغلب على بعض العقبات الإدارية. كانت هذه السيدة قد قالت لى إن حجم العمل فى ميناء مارسيليا هو عشرة أضعاف حجم العمل فى ميناء الإسكندرية، وذلك رغم أن عدد عمال ميناء الإسكندرية هو ضعف عدد عمال ميناء مارسيليا (بدون تعليق). يدخل القطار الآن فى النفق الذى يصل بنا إلى محطة (سان شارل) فى قلب مدينة مارسيليا، وكما سبق أن قلت فإن هذا النوع من الأنفاق يسمح بتقليل حجم الضوضاء الصادرة عن القطارات عند دخولها إلى محطات المدن.

(٣)

عندما تخرج من محطة القطار فى مارسيليا، نكتشف أنك تقف على ربوة عالية، تكتف أمامك أسطح كل المنازل المحيطة بالمحطة، وهى المنازل التى ترتفع على الأقل عشرين متراً، أى حوالى خمسة طوابق من نوع منازل القرن التاسع عشر. ولكن يمكنك كذلك إذا رميت ببصرك إلى ما هو وراء أسطح تلك المنازل، أن ترى مياه البحر المتوسط، وأن ترى كذلك الجبال التى تحيط بالمدينة فى خلفية الصورة، ويمكن أن ترى كذلك من موقع محدد على رصيف ميدان المحطة كنيسة (عذراء الحماية)، وهى القديسة التى تحمى المدينة من أعدائها.

كنت قد وصلت إلى هذه المدينة لأقضى فيها ليلة واحدة، حتى ميعاد طائفة العودة ظهر الغد، كنت أحمل حقيبة ثقيلة، وهكذا غاظنى جداً وجود هذه المحطة على هذه الربوة العالية، وذلك لاضطرارى إلى حمل الحقيبة أثناء النزول على السلالم المؤدية إلى المدينة، وهى

لا نقل عن مائتي درجة سلم، وتذكرت أثناء النزول، أن الصعوبة الحقيقية ستكون غذا صباحاً في الصعود بنفس هذه الحقيبة إلى أعلى الربوة، ولكن طمأنني قليلاً اكتشاف وجود عدد من الشباب المغاربة قابلاً أسفل درجات السلم، عارضاً على الصاعدين، خاصة متقدمي السن منهم، حمل حقائبهم عنهم، وقد سمعت أحدهم يطلب من صاحب حقيبة يوررو واحداً مقابل خدمته تلك.

توقفت أمام مدخل أول فندق قابلي، الحجرة بحمام داخلي تكلف ٤٠ يورو، وافقت وصعدت السلم إلى الحجرة وتركت فيها حقيبتي، ولكن قبل أن أنزل اكتشفت أن ملابسي كلها مبللة بالمياه، فالرطوبة فظيعة جداً في هذه المدينة. دوش بارد، وعودة إلى الشارع. اشتريت خريطة المدينة من كشك على الرصيف، بحثت فيها عن كيفية الوصول من مكاني أمام الفندق في ميدان المحطة، إلى موقع الميناء القديم، وهو المكان الذي كنت قد تناولت فيه طعام الغداء مرة واحدة من قبل، منذ حوالي عشر سنوات، وذلك عندما كنت قد جئت لزيارة هذه المدينة مع زوجتي السابقة، وكانت قد استضافتنا لليلة واحدة صديقة لبنانية، كانت متزوجة من فرنسي، كانا يعملان معاً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة منذ عشرة أعوام.

عندما خرجت من الفندق إلى الشارع، فوجئت فوراً بسماع أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وسميرة سعيد، هذه الأغاني تنبعث تقريباً من كل المقاهي والمطاعم الواقعة في شارع أثينا، وهو الشارع الذي يؤدي إلى شارع (كارابينيير)، الشارع الرئيسي المواجه للميناء القديم، اكتشفت أن المنطقة المحيطة بالمحطة هي منطقة تجمع المغاربة. إلا أن سريئة سيارة البوليس لم تنقطع طوال النهار، وأيضاً حتى ساعات متأخرة من الليل، وهكذا ظللت مستيقظاً في فراشي حتى الواحدة صباحاً، ولكنني تساءلت يا ترى ما هو السبب في هذه السريئة المستمرة؟ هل يتعارك المغاربة بعضهم مع بعض؟ أم يتعاركون مع

آخرين؟ ومن أى الجنسيات هم هؤلاء الآخرون؟

بعد الغداء فى مطعم الميناء، شغلت ساعات بعد الظهر والعصر والمغرب بعمل زيارات متنوعة للمدينة، فقد أخذت مركبًا بخاريًا كبيرًا حمل حوالى مائة سائح من جنسيات مختلفة (هناك مركب كل نصف ساعة خلال فصل الصيف)، وذلك للإبحار مسافة حوالى ١٠ كم إلى عرض البحر، حيث تركنا ساعة لزيارة جزيرة اشتهرت فى فرنسا وفى العالم الفرانكوفونى بأنها الجزيرة التى أوحى إلى الأديب (ألكسندر ديماس) روايته (الكونت دى مونت كريستو)، حيث يقع طبقًا لأحداث الرواية السجن الذى سجن فيه هذا الكونت، وفى الواقع فإن آثار هذا السجن ما زالت باقية. وعندما انتهت الرحلة البحرية ركبت سيارة سياحية (أتوبيس) لعمل جولة سياحية بالمدينة، حتى غروب الشمس، مرورًا أولاً بكورنيش المدينة، حيث وجدت صورة كبيرة لوجه لاعب الكرة (زيدان) والذى كانت المدينة فخورة بكونه أحد أبنائها.

خلال تلك الجولة السياحية بالأتوبيس، مررنا بأغلب أجزاء المدينة القديمة والحديثة، حيث اكتشف وجود عدد هائل من المباني الجميلة، والحدائق العامة، وكذلك المتاحف التى تستحق زيارة متأنية، ثم بدأ الأتوبيس صعوده إلى قمة الجبل التى تقف عليها السيدة العذراء حامية المدينة. الملحوظة الأخيرة تتعلق بكون مساكن المدينة مبنية على مستويات مختلفة، كما هو الحال فى كل المدن المقامة على جبال، ونحن لا نستطيع أن نتخيل هذا، وذلك لعدم وجود جبال لدينا فى مصر.

مغاغة

إنه فى يوم الأحد ٢٩-١٠-١٩٩٠، الساعة السادسة مساء، فى الطريق بين بنى سويف والمنيا (وبالتحديد بين ببا ومغاغة)، اندفعت سيارة شرطة فى الطريق ما بين القرى الأهلة بالسكان، بسرعة لا تقل عن ١٠٠ كم فى الساعة، (وذلك لأنى كنت فى أتوبيس سياحة على نفس الطريق يسير بسرعة ٨٠ كم فى الساعة وتعدتنا سيارة الشرطة بسهولة!!) وعند مدخل إحدى القرى - وكانت الساعة هى موعد عودة قطعان الماشية من الحقول إلى الحظائر - وحسب العادة المتبعة فى ذلك الريف، ومنذ قدماء المصريين، فإن طابور الماشية يكون بطول عدة مئات من الأمتار وبلا انقطاع، عشرات الأبقار والجواميس والحمير والبشر يسرون جميعا معا فى طابور واحد، بعضهم خلف بعض!! وحتى لو لم يكن هناك مع تلك الماشية أى بشر، فإن تلك الماشية تعرف وحدها طريق العودة!! ولكن ذلك اليوم كان هناك العديد من الأطفال، على ظهور تلك المواشى!! نعود إلى سيارة الشرطة المندفعة فى طريقها لا تلوى على شئ، وذلك رغم أن سائقها يرى هذا القطيع إلى يساره بمحاذاة التربة، ويعرف أن هذا القطيع يعبر طريق السيارات من اليسار إلى اليمين، وذلك حتى يتمكن من العودة إلى القرية التى تقع إلى يمين الطريق!! وكنا نسير خلف سيارة الشرطة فى سيارة سياحة كما سبق القول، وعلى بعد بضعة عشرات الأمتار منها، وعندما لمحت أماننا القطيع يعبر الطريق، ليس بعيدا عنا، توقعت حدوث كارثة، وطلبت من سائق سيارة السياحة الإبطاء قليلا... تستمر سيارة الشرطة فى اندفاعها المجنون، كأن قائدها يعتقد أن تلك الحيوانات الوديمة يجب أن تعرف أنه رجل شرطة، وأنها ينبغى عليها أن تفسح له الطريق. تتدفع

السيارة بكل قوتها لتضطرم بجاموسة ضخمة سوداء، رأيتها من مكانى فى أتوبيس السياحة، تطير فى الهواء مسافة عدة أمتار، ولتسقط ثانية على الطريق، أمام سيارة الشرطة التى تكون قد أبطأت قليلا لا إراديا من سرعتها، وتكون جثة الجاموسة المسكينة الملقاة على الطريق هى التى منعت عجلات سيارة الشرطة من الدوران.

وعندما تتوقف سيارة الشرطة تماما، يندفع نحوها أهالى القرية الذين شاهدوا الجريمة من بدايتها، يندفع أهالى القرية نحو سيارة الشرطة بالعشرات وهم يحملون العصى والفؤوس، ويشعر رجال الشرطة بالخطر، فينزل عدد منهم من السيارة إلى الطريق الزراعى، ويبد كل منهم بندقية آلية يطلق منها عدة طلقات فى الهواء!! يرتدع الأهالى ويترددون فى مهاجمة السيارة، ويركب العساكر سياراتهم من جديد، ليستأنفوا السير فى طريقهم. الشئ الذى ما زلت غير متأكد منه هو وجود أو عدم وجود ضابط شرطة إلى جوار سائق السيارة؟ ثم سؤال آخر: هل كانت تلك الجريمة هى ضمن خطة عامة لإرهاب أهالى المنطقة، حيث إنه فى ذلك الوقت كانت هناك اشتباكات مستمرة بين الشرطة والمتطرفين الدينيين الذين قد يختبئ بعضهم فى مثل هذه القرى؟ ولكن لمصلحة من تدهس هذه الجاموسة المسكينة؟ وما نتيجة هذا الموقف لو أن على ظهر هذه الجاموسة طفل أو طفلة؟ ولمصلحة من يغتال أمن الإنسان المصرى الوداع منذ آلاف السنين؟ ومن نلوم على نقشى ظاهرة العنف فى المدن والقرى، إذا كانت الشرطة هى البادئة بالاعتداء؟ لا أعرف لماذا يستدعى هذا المنظر إلى ذاكرتى قصة الجنود الإنجليز فى دنشواى؟ وكذلك قصة دفع المصريين للعمل بالسخرة فى حفر قناة السويس، على زمن الخديوى سعيد والخديوى إسماعيل؟ "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه" حديث شريف.

ملوى

كنا قد زرنا صباحًا آثار تونة الجبل والأشمونين ثم عندما عدنا بعد الظهر إلى مدينة ملوى، تناولنا طعام الغداء فى مطعم الفندق، ثم صعدت إلى حجرتى لأنام لمدة ساعة، ثم خرجت إلى شرفة الحجرة لأراقب الطريق، وإذا بى أفاعاً بوجود صبية فى حدود سنة الخامسة عشرة، يسرون عراة تمامًا فى الشارع، ولا يلتفت هذا المنظر انتباه أى شخص. إلا أنهم يمرون بعد ذلك فوق كوبرى، ثم يقفزون منه إلى ترعة الإبراهيمية؛ ليسبحوا فيها قليلا إلى الشاطئ، ثم ليخرجوا من جديد إلى الطريق، ليكرروا مرة أخرى ما سبق لهم فعله. والذى أدهشنى هو أنه فى هذا الطريق، الذى كانوا يسرون فيه ثم على الكوبرى الذى يعبرونه، إلى منتصفه كانت تمر سيدات وفتيات. ولم أعرف كيف أفسر هذا التناقض العجيب، فى هذا المجتمع الذى يسمح لهؤلاء الصبية بهذا العرى، ثم يفرض على الفتيات الحجاب! كان هذا فى يوليو ١٩٨٤ هل تغير الحال الآن؟

كما أنه كان يلتفت نظرى كثيرًا فى الأقصر فيما بعد، أى منذ منتصف الثمانينيات، وحتى منتصف التسعينيات، وجود صبية كان فى الخامسة من عمره، ثم أصبح فى الخامسة عشرة، يجول فى طرق البر الغربى عارياً تمامًا. كنت أراه مثلاً جالساً القرفصاء فوق عربة فنتاس توزع الجاز عند تمثالى ممنون، ثم أراه واقفاً على التقاطع الرئيسى بين طريق إسنا الأقصر والطريق المؤدى إلى منطقة تمثالى ممنون، وكنت أراه فى أغلب الأحوال وحده يسير وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، وفى أحيان قليلة كنت أجد تلاميذ المدرسة الإعدادية

ملتقنين حوله يكلمونه. كان يتطور جسمانيًا إلا أنني لم أعرف أبدًا عمره العقلي. وعندما كنت أسأل عنه سائقى سيارات السياحة، الذين هم فى الأصل من سكان مدينة الأقصر، كانوا يقولون أنه ولد مبروك، وأن أمه وأباه معروفان للكل، وأنهما قد تعذبا كثيرًا معه وهو صغير، ليجعله يرتدى ملابس، إلا أنه كان يمزقها كلما ألبسها إياها بالعافية. وقد أضاف بعض سائقى السيارات قصصًا غريبة عن أكله للحوم نيئة، وعدم إحساسه بالبرد الشديد فى ليالى الشتاء، فى حقول البر الغربى حيث درجة الحرارة أحيانًا شتاء أقل من الصفر. كل ما يمكن أن أضيفه هو أن أغلب مناطق الأرياف فى مصر، تعرف هؤلاء الذين يجولون عراة، وأغلب تلك المناطق تعتقد أن هؤلاء العراة مبروكون. وقد قرأت مؤخرًا كتابًا عن الأطفال المتوحشين، من مطبوعات دار الفكر، به وصف شبيه تمامًا بذلك الذى ذكرته أعلاه، لأطفال آخرين، ليسوا فقط فى الشرق، وإنما كذلك فى أوروبا. وأعتقد أن هذا الصبى لم يكن على الإطلاق مدرّكًا لعريه. ويبدو لى أن مثل هؤلاء الأشخاص يكونون شبه غائبين عن الوعي، وهو ما يجعل البسطاء يعتقدون أن هؤلاء الأشخاص مبروكون، ولا يدرك البسطاء مرض هؤلاء الأشخاص، أو تخلفهم العقلي. (راجع يوميات ضابط فى الأرياف للأستاذ حمدى البطران من مطبوعات روايات الهلال).

مير

كان جدى لأبى من مواليد ١٨٩٠ فى قرية مير، من أعمال القوصية بمديرية أسيوط، فى ذلك الوقت الذى كانت فيه مصر تحت الاحتلال الإنجليزى منذ سنوات قليلة (منذ ١٨٨٢). تعلم الإنجليزية فى المدرسة الابتدائية بمير، ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية الأمريكية بأسيوط، وكانت الإرساليات البروتستانتية الأمريكية قد استفادت من وجود الاحتلال الإنجليزى فى مصر، فى إنشاء العديد من المدارس والمستشفيات فى عواصم الأقاليم. تم تجنيد جدى فى أوائل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، كمترجم فى الجيش الإنجليزى، وقد ذهب بعد ذلك بعام مع هذا الجيش إلى العراق أولاً، ثم إلى الهند التى ظل فيها حتى نهاية الحرب سنة ١٩١٨ (حيث كان يتولى الترجمة بين الجنود المصريين والضباط الإنجليز).

عندما عاد إلى مصر كان أول شئ فكر فيه هو الزواج. كان فى الثامنة والعشرين من عمره، كما كانت لديه مكافأة خدمته فى الجيش الإنجليزى. تقدم إلى جدتى التى كانت استثناءً شاذاً فى ذلك الوقت فى مصر، إذ إنها كانت قد حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية من المدرسة الأمريكية الثانوية بأسيوط. ترددت جدتى قليلاً فى قبول عرض الزواج، ولكن كان هناك عاملان هامين جعلها تقبل هذا الزواج، الأول هو أنه كان قد تم تعيين جدى موظفاً حكومياً فى البوستان المصرية؛ مكافأة له على خدمته فى الجيش الإنجليزى لمدة أربعة أعوام، والوظيفة وقتها كانت هى خير ما يطمح إليه أبناء تلك الطبقة المتوسطة من الأقلية المسيحية. أما العامل الثانى فهو المكافأة

التي كان قد حصل عليها في نهاية الحرب. يقول عمي إن البلد كلها (مير) كانت تتحدث عن الحقيقة المليئة بمئات الجنيحات الإنجليزية الذهبية، والتي كان قد عاد بها جدي من الهند!!!

تزوجا في أوائل سنة ١٩١٩، وأنجبا طفلة في أوائل سنة ١٩٢٠، ثم أنجبا أبي في يناير ١٩٢١. وتشهد صور أبي في مدارسه الابتدائية المختلفة بين مير وأسيوط، على رخاء العيش الذي تمتع به في سنواته الأولى تلك، إذ يبدو أن جدي كان قد بذر تبذيرا شديدا في صرف المال على رغد العيش، وذلك بدلا من استثماره في شراء أرض أو منزل حسب المعتاد في ذلك الوقت، ويبدو رخاء العيش في تلك الصور في الملابس الأنيقة وفي الميل إلى الامتلاء. أما بعد ذلك فيبدو أن النقود قد نفذت، وحضر المزيد من الأخوة والأخوات، وضافت المعاش. وكان والدي يحكي لنا أحيانا ونحن أطفال، كيف أنه في بعض سنوات الدراسة في المدرسة الثانوية في أسيوط، ثم في المدرسة الثانوية في بنها، ثم في كلية طب قصر العيني بعد ذلك، لم يكن لديه إلا قميصين، يلبس أحدهما حتى يغسل الآخر وهكذا. ثم كيف أنهم كانوا يسكنون حي شبرا، وكان يذهب إلى كلية طب قصر العيني في المنيل مشيا على الأقدام، وذلك لتوفير قرش صاغ الترام ليأكل به ساندوتش جبنة .

لم أذهب إلى مير أبدا طوال حياتي، فمئذ أكثر من ثلاثين عاما لم يعد لنا فيها أقارب، وحتى عندما كنت خلال ممارستي لمهنة الإرشاد السياحي، أمر أحيانا بالأتوبيس السياحي مع مجموعة السياح الفرنسيين، على الطريق الزراعي بين المنيا وأسيوط، لنتوقف عند ملوى لزيارة تونا الجبل والأشمونين، أو لنتوقف عند دير مواس ونعبر النيل إلى الضفة الشرقية لزيارة تل العمارنة، لم يكن لدى أبدا الوقت الكافي للذهاب إلى مير لزيارتها، رغم مروري بالقرب منها، على بعد عشرة كيلو مترات فقط منها، عندما كنت أمر بمدينة

القوصية. كنت أقول للسياح (نحن نمر الآن بالقرب من مدينة مير، حيث اكتشفت مجموعة مقابر من الدولة القديمة، وهذا يدل على أنها مدينة عمرها لا يقل عن خمسة آلاف عام) ثم أضيف قائلا (إنها كذلك مدينة مسقط رأس أبى وجدى، وهى التى اشتق منها لقب عائلتى).



شارع الهرم

(١)

بدأت أولاً منتقلا بين محلات صغيرة، أذكر منها مثلاً ملهى (الكهف)، وكان فى أول شارع الهرم إلى اليسار لو كنت قادماً من ميدان الجيزة. كان ذلك فى مارس ١٩٧٧ عندما عملت هناك أسبوعاً كاملاً كعازف على الجيتار الباص، مقابل أجر يومية قدره ١٥٠ قرشاً. كانت تلك المنطقة من شارع الهرم قد لفتت الانتباه عندما كان قد تم افتتاح كازينو الليل لشريفة فاضل فى الجهة المقابلة من الشارع منذ شهور قليلة. ثم تنقلت مع الفرق المختلفة بين بعض الملاهى الأخرى أذكر منها مثلاً ملهى (الأرض الطيبة) حيث عملنا خلال شهر مايو من نفس العام.

بعد ذلك سيستقر بى المقام حوالى عام ونصف فى ملهى الباريزيانا، والذي يقع عند تقاطع الشارع مع ترعة المريوطية. وكان ذلك فى الوقت الذى فقدت فيه فرق الموسيقى الغربية بشكل عام أهميتها داخل تلك المحلات، إذ أصبحت الأولوية المطلقة تعطى للمغنيين الشرقيين وللراقصات. وهكذا كان علينا أن نذهب كل يوم إلى المحل فى التاسعة مساءً، وذلك حتى نبدأ العزف فى التاسعة والنصف مساءً بموسيقى خفيفة، ثم عندما يحضر مغنى الفرقة فى العاشرة والنصف، نبدأ فى عزف مجموعة من الأغاني الغربية والتي كانت ما تزال منتشرة بين الشباب فى ذلك الوقت، للمغنيين من أمثال ديميس روسوس، وخليو أجلسيوس، وبول أنكا، ومايكل جاكسون، إلخ. وذلك لمدة ساعة مثلاً، وعندما تبدأ الصلاة فى الامتلاء قليلاً نبدأ فى

اختيار بعض الأغنيات العربية المشهورة في ذلك الوقت، مثل أغنيات ناصر المزداوى (البيى)، عائلة البندلى (البنانية)، فيروز، إلخ....

وفى تمام الساعة الثانية عشرة مساءً، نترك المسرح للنمر الشرقية، ويستمر هذا البرنامج الشرقى حتى الرابعة صباحاً، وكنت فى أغلب الأحوال طوال تلك الساعات، أنزل إلى حجرة الفرقة بالكواليس أسفل المسرح، وأقضى الوقت فى القراءة، إلا أنى كنت أحياناً أختار أن أعود إلى الصلاة، وأجلس إلى مائدة الفرقة، لأتابع بعض الفقرات التى كانت تعجبني مثل فقرة المنولوجيست (سيد الملاح)، وكذلك عندما كان عدد الزبائن فى الصلاة يسمح باستضافة المغنى الشعبى (أحمد عدوية).

ذات ليلة، وكنت جالساً إلى مائدة الفرقة، جاء مدير الصلاة الأستاذ (العربى)، وكان دائماً مثالا للأناقة، يرتدى حلة سوداء برباط عنق ملون، وكان يعرف أننى أدرس فى نهائى طب، ولذلك كان يعاملنى بقدر من الاحترام، جاء هذا الرجل وجلس إلى نفس المائدة وقال (مساء الخير) فحييته، ثم بعد قليل جاءه عشاؤه فقال (اتفضل معاً) فشكرته، أضاف (الصلاة مليانة ع الفاضى، كل الزبائن سكة)، والمقصود طبعاً بعبارة أن نوعية الزبائن الموجودين فى الصلاة تلك الليلة، وقدرتهم على دفع الحساب فى نهاية السهرة، لا تسمح بعرض فقرات مكلفة، على مسرح المحل تلك الليلة. وبالفعل قرر صاحب المحل بعد ذلك بربع ساعة، أن تعود الفرقة الموسيقية الغربية إلى المسرح، وتستأنف عزف الموسيقى الغربية. فى تلك الأحوال كان زبائن المحل، أو المعتادون على الحضور بمعدل على الأقل مرة كل أسبوع، عندما يروننا نعود إلى المسرح، كانوا يفهمون أنه لم تعد هناك فقرات جيدة تستحق البقاء، فكانوا فى تلك الحالات يدفعون الفاتورة ويغادرون المحل. وكانت تلك هى الحالة الوحيدة التى كنا نستطيع أن نغادر فيها المحل مبكراً فى الواحدة أو الثانية صباحاً،

فذهب سويًا بعد ذلك إلى ميدان الجيزة لتعشى، سندوتشات ربع كباب، بنصف جنيه الساندوتش، ويشرب كل منا زجاجة بيرة، وكان ثمنها ربع جنيه.

(٢)

جاء صاحب المحل ذات يوم وأبلغنا أن هناك مغنية جديدة اسمها لوليتا، ستضم إلى برنامج المحل، وطلب منا أن نستعد (بصفتنا فرقة المحل الموسيقية) بعمل بروقات لها، على عدد من أغنياتها، وكذلك أغنيات لمطربين آخرين، بحيث يمكن أن تصل مدة عرضها إلى ساعة إذا لزم الأمر. حاول رئيس الفرقة الاعتراض بطريقة غير مباشرة قائلاً (قد تكون الفرقة الشرقية أفضل لمصاحبتها)، فجذبه عازف الجيتار من ذراعه وأفهمه أن هذه المطربة الجديدة، رغم المجهود الذي سنبذله معها، هي خير للفرقة، فهي غالبًا ما تحصل على نقطة كبيرة، أى أن الزبائن ينقطون بها بمبالغ كبيرة كل ليلة، وكانت الفرق الموسيقية تحصل على ثلث هذه المبالغ.

لا أدري من هو الذى أطلق عليها هذا الاسم الفنى "لوليتا" ولكنه اسم مضلل!! فما هى إلا فتاة صغيرة الحجم، ضامرة الجسم، سمراء وذات شعر أسود قصير أجعد!!! عندما حضرت لأول مرة التاسعة مساء أحد الأيام، انشغلنا معها ساعة فى بروفة على أغنيات سعودية مثل (جارى يا حمودة) و(أبعاد كنتم وللا جريبين) و(يا سارية خبرينى)، وكانت على الموضة فى ذلك الوقت، وكذلك أغنيات لفيروز مثل (حبيبك بالصيف) و(حنا السكران) إلخ ... وخلال تلك الساعة لفتت انتباهى بشخصيتها الجريئة، ثم فى خلال أيام قليلة تحول هذا الانتباه إلى اهتمام ثم إلى حب!! وقد كان هذا التطور الدرامى السريع بسبب قلة (أو حتى انعدام) خبرتى بالنساء فى ذلك السن!! بدأت أتردد على البانسيون الذى كانت نقيم فيه فى رقم ١٩ شارع

سوق التوفيقية، كل يوم من الرابعة مساء وحتى التاسعة مساء!! كل يوم!! نجلس سوياً نشاهد التلفزيون ونتحدث ونأكل، وذلك قبل أن أذهب بها بسيارتي إلى محل فى شارع فؤاد اسمه (ميامى) حيث تغنى فى العاشرة مساء، وأذهب أنا إلى عملى فى شارع الهرم حيث تلحق بى وبقية الفرقة، على خشبة المسرح فى الواحدة صباحاً. ثلاثون يوماً لم تكن علاقتى بها تتعدى لمس الأيدى أو تشابكها!! فأنا حتى لم أفكر فى محاولة تقبيلها، ناهيك عن الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك!!

(٣)

عندما تركت شارع الهرم كموسيقى فى منتصف الثمانينيات، عدت إليه بعد أقل من عام ولكن بصفتى الجديدة كمرشد سياحى، وهى المهنة التى مارستها مدة سبع عشرة عاماً، وقد أصبحت زيارة منطقة الهرم مع المجموعات السياحية قطعة من العذاب!! أولاً: الوقوف فى طابور طويل جداً، لقطع تذاكر دخول المنطقة الأثرية، لماذا لا توجد إلا نافذة واحدة فقط لبيع التذاكر؟ هل هذا بسبب قلة الموظفين؟ ثم لماذا يضيع من المجموعة نصف ساعة جلوساً فى الأتوبيس؟ هل جاءوا إلى بلادنا ليجلسوا فى الأتوبيس؟ ثانياً: هناك الباعة الجائلون الذين لا يتركون على الإطلاق أى سائح فى حاله، فيحدثونه بلغات مختلفة، ويجذبونه من ثيابه، ويستعطفونه بادعاء الجوع (ويعبرون عن ذلك بحركة متكررة من اليد فى اتجاه الفم مما يجعل المسألة أقرب إلى الشحاذة). ثم إنهم وبالاتفاق مع الشرطة يدخلون إلى المناطق الممنوع عليهم دخولها (داخل معبد أبى الهول مثلاً)، ويمنعون المرشد بإلحاحهم من أداء عمله!! صحيح أنهم فقراء وأن لا مصدر آخر للرزق لديهم، ولكن أليس هناك أى حل لمحاولة تنظيم هذه المسألة؟؟ ثالثاً: هناك ضعف هائل فى العملية التنظيمية بشكل عام!! فمثلاً ليست هناك لوحات إرشادية كافية، بحيث إنك كمرشد لا تستطيع أن تعرف إن كان من الممكن للسائح التصوير فى

المنطقة أم لا؟؟ وإن كان التصوير مسموحًا به فهل هو بالمجان أم يدفع رسوم؟؟ ثم كم هي قيمة هذه الرسوم؟؟ تجد أحيانًا من يتطوع قائلًا إنها مجانًا (بس ابقى شوف الغفر) بما يعنى إعطاء الغفير إكرامية ما!! ثم عندما تفعل ذلك، تجد أن الغفر غير راضين!! فهم يقولون لك: اترك السائح يدفع بنفسه (على أمل أن يعطيهم مبلغًا أكبر!) وأنت تشعر بالإحساس بالذنب تجاه الغفر، ولكنك كذلك تشعر بالمسئولية تجاه السائح ولا تعرف كيف تفسر له الموقف كله!

التعريف بالمؤلف

أنا اسمى عادل أسعد بولس الميرى، وأحياناً هذا الاسم يُكتب (يونس الميسرى)، ولكن أظرف تسمية له كانت فى مديرية كهرباء بولاق (التابع لها حى الزمالك) حيث كتب هذا الاسم (بوليس المدير). ولم أعد أعرف إن كنت بولس أم يونس أم بوليس، ولا إن كنت الميرى أم الميسرى أم المدير. وهذه الحيرة الفلسفية (من أنا؟) مقصودة من جهات الإدارة الحكومية، وذلك لشغل الناس بالتساؤلات الفلسفية من نوع (أكون أو لا أكون هذا هو السؤال) على رأى عمنا شكسبير (يقول الرئيس القذافى إن أصل اسمه هو الشيخ زبير)، أو على رأى عمنا صلاح جاهين فى واحدة من رسوماته الكاريكاتيرية، والتي نرى فيها أحد البهوات يقف ممسكاً بالتليفون، بعد أن عرف أن رقم تليفونه قد تغير، يسأل هيئة التليفونات إن كانوا قد غيروا اسمه كذلك، أم أنه سيحتفظ باسمه القديم كما هو.

ولدت سنة ١٩٥٣، وحصلت على بكالوريوس طب سنة ١٩٨٠ من جامعة عين شمس (تأخرت ثلاثة أعوام فى الكلية بسبب ممارسة الموسيقى مع فرق المحترفين)، ومارست مهنة الطب فى خمس مستشفيات (الدمرداش الجامعى - غمرة العسكرية - كوبرى القبة العسكرية - بولاق أبو العلا - الهلال الأحمر بطنطا) لمدة أربع سنوات، وذلك قبل أن أقرر سنة ١٩٨٤ الاستقالة من وزارة الصحة، ودراسة تاريخ مصر وأثارها دراسة مكثفة لمدة عام؛ وذلك للحصول على ترخيص إرشاد سياحى فى مارس ١٩٨٥، وهى المهنة التى مارستها لمدة سبعة عشر عاماً، أى حتى سنة ٢٠٠٢، وخلال تلك المدة حصلت على دبلومى الآثار المصرية والإسلامية (مدة الدراسة فى كل منهما عامان دراسيان) من جامعة القاهرة. وحصلت كذلك على دبلوم فى الأدب الفرنسى سنة ١٩٩٤ (مدة الدراسة أربعة أعوام)، وهو برنامج تعدده

جامعة السوربون الباريسية، بالتعاون مع السفارة الفرنسية بالقاهرة. عملت كذلك فى تدريس اللغة العربية للأجانب منذ منتصف التسعينيات، وذلك خلال المواسم التى توقفت فيها السياحة لسبب أو لآخر، ثم عملت كذلك مدرّسة للغة العربية فى مدرسة القنصلية الفرنسية بالمعادى خلال عامين دراسيين (٢٠٠٢/٢٠٠٣ و ٢٠٠٣/٢٠٠٤).

كنت قد تزوجت سنة ١٩٩٠ من كبير (فرنسية) زواجا مدنياً، أمام قنصل فرنسا بالقاهرة ثم تسجيله فى الشهر العقارى بشوارع الجمهورية، وحصلت بعد ذلك على باسبور فرنسى سنة ١٩٩٦. كانت زوجتى قد حصلت على الجنسية المصرية وعلى باسبور مصرى سنة ١٩٩٣، أما أنا فقد تأخر حصولى على الجنسية الفرنسية وعلى باسبور فرنسى حوالى ثلاث سنوات، وذلك بسبب أن وزير خارجية فرنسا فى تلك الفترة ١٩٩٦/٩٣ وهو (شارل باسكوا)، كان ضد حصول الأجانب، خاصة من دول العالم الثالث، على الجنسية الفرنسية بالزواج من فرنسيات. هذا الباسبور الفرنسى هو الذى سهل لى السفر إلى فرنسا خلال السنوات العشر الماضية، خاصة أننى أحصل على تخفيضات فى تذاكر السفر، بصفتى عضو فى نقابة المرشدين السياحيين.

بهذه المقدمة يستطيع القارئ أن يفهم بعض فصول الكتاب، والتى تتعلق بممارستى لهذه المهن المختلفة، وأيضاً تلك التى تتعلق بسفرى إلى أوروبا.

صدر للمؤلف:

- القارئ النض، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٤.
- القارئ الجالس القرفصاء، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٥.
- تأملات جوال فى المدن والأحوال، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٦.

فهرس الصور والأشكال

- ١- لقطة من عرض (الليلة الكبيرة) لمسرح عرائس القاهرة، ١٩٦٥ ١٤
- ٢- شاطئ استأنلى بالإسكندرية - أنا وأمى وأخى، ١٩٦٥ ١٩
- ٣- المغنى والملحن الأسطورة ستيفى وندر ٣٠
- ٤- غلاف كتاب (بلو جايد) عن مصر - وعليه صورة معبد أبو سمبل ٣٥
- ٥- زوجتى (كلير) فى مركب شراعى عند نيل أسوان، ٢٠٠٠ ٤٢
- ٦- لقطات لمأذن شارع أمير الجيوش بالقاهرة، ١٩٩٠ ٤٧
- ٧- غلاف دليل متحف (اللوفر) فى باريس، ١٩٩٤ ٥٦
- ٨- صورة من مخطوط صينى قديم تمثل استقبالا إمبراطوريا ببيكين حيث كان يقع القصر الإمبراطورى داخل المدينة المحرمة ٦٦
- ٩- ثلاث ورقات نقدية منقرضة فئة الخمسة قروش وفئة العشرة قروش ٦٩
- ١٠- صورتان لأمى وهى فى الثالثة من عمرها ولجنتى وهى فى الثالثة والعشرين ١٩٣٣ ٩٠
- ١١- بورترية بيتهوفن رسمته فى القسم الحر بكلية الفنون الجميلة بالزمالك، ١٩٨٣ ٩٦
- ١٢- أيقونة حلم يعقوب حيث نرى السلم الذى يصعد عليه القديسون من الأرض إلى السماء. بمتحف أيقونات دير سانت كاترين ١٠١
- ١٣- خريطة لمدينة (سوسة) فى تونس - من دليل سياحى باللغة الفرنسية، ٢٠٠٣ ١١٤
- ١٤- غلاف معرض صور عن هوتج كونج لتقديمه شاهنته فى شائغهاى، ٢٠٠٤ .. ١٢٤

- ١٥- صفحة من مخطوط بالمتحف البريطاني عن (قصص على لسان الحيوانات)
للفيلسوف اليوناني (إسوب) نرى فيها قصة الغراب والثعلب ١٣٠
- ١٦- صورة لفريق الغناء الانجليزي (البيتلز) عند تصوير فيلمهم (ليالى الأيام
الصعبة)، ١٩٦٦ ١٣٥
- ١٧- كارت بوستال يحمل صورة من الجو لشواطئ كاب داجد بجنوب فرنسا ١٦١
- ١٨- غلاف دليل متحف الفن الإسلامي (يكوالا لامبور) عاصمة ماليزيا ١٦٦
- ١٩- بول مكارتنى - أحد أعضاء فريق البيتلز - عند تأسيسه لفريقه الجديد
(الوينجز) حيث نراه يلعب على آلة الباص، جيتار حوالى سنة ١٩٧٤ ١٨٠
- ٢٠- أبى وجدى (بالطربوش) فى مدينة مير بصعيد مصر، ١٩٥٠ ١٩٦

فهرس الموضوعات

٧	- أبو سمبل
٩	- إدفو
١٢	- إسعاف
١٧	- إسكندرية
٣٢	- أسوان
٣٨	- أقصر
٤٣	- أمير الجيوش
٤٨	- باريس
٥٧	- البحر الأحمر
٦١	- بكين
٦٧	- بور سعيد
٧٢	- بولاق أبو العلا
٧٦	- تونس
٨٢	- دلتا النيل
٨٩	- دمنهور
٩١	- روض الفرج
٩٤	- الزمالك
٩٩	- سانت كاترين
١٠٢	- ستيفن إيدج

- ۱۱۰ میدان سفنکس -
- ۱۱۲ سوسة -
- ۱۱۷ شرم الشيخ -
- ۱۲۰ شانغهای -
- ۱۲۵ طنطا -
- ۱۴۱ العیاط -
- ۱۴۴ الفيوم -
- ۱۴۹ القاهرة -
- ۱۵۹ قصر العینی -
- ۱۶۲ کاب داجد -
- ۱۶۴ کوالالمپور -
- ۱۷۱ کوم أمبو -
- ۱۷۳ لندن -
- ۱۸۲ مارسیلیا -
- ۱۹۰ مغاغة -
- ۱۹۲ ملوی -
- ۱۹۴ میر -
- ۱۹۷ هرم -

من قائمة الإصدارات

دراسات .. نقد

د. أحمد إبراهيم الفقيه	هاجس الكتابة
أحمد جمعه	المجهول المتمرد
د. أحمد الدوسري	مستحيل الكتابة
أحمد عزت سليم	ضد هدم التاريخ وموت الكتابة
ادوار الخراط	في نور آخر (دراسات وإيماءات في الفن التشكيلي)
ثريا نافع	متاهات
د. حامد أبو أحمد	الخطاب والقارئ
د. سامي سليمان أحمد	حقريات نقدية (دراسات في نقد النقد العربي المعاصر)
د. السيد إبراهيم	المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر
عادل أسعد الميري	القارئ القضي
عادل أسعد الميري	القارئ الجالس القرفصاء
د. عادل الأوسي	الحياة الصوفية وتقاليدھا في الموروث الشعبي العربي
د. عادل الأوسي	الجواهر والأحجام الكريمة في التراث والحضارة العربية
د. عادل الأوسي	البحث عن الوثائق (دراسة في وثائقنا القومية)
د. عبدالرحمن عبد السلام محمود	تعالقات الخطاب (السردية والمقالية)
د. عبد الغفار مكاي	البلد البعيد (دراسات في أدب جوته- شيلر،)
د. عدنان الظاهر	نقد وشعر وقصص
د. عزة عزت	الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية (لغة الشارع)
محمد قابيل	آخر بلاد الدنيا (في أدب الرحلات)
محمد مستجاب	أبو رجل مسلوخة
مرفت رجب	المتفرجة "مقالات"
هبة عنايت	يحدث أحيانا
نفيسة الشرقاوي	حوارات الفن والثقافة
يسري حسين	البحث عن مصر في بريطانيا
هيثم يحيى الخواجة	أوراق في النقد
يوسف الشاروني	من جراب الحاي

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة :

سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال، خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز